المحاضرة الأولى: مدخل مفاهیمي الى علم الاجتماع و الاجتماع الحضري

**تمهید:** یعد علم الاجتماع الحضري أحد الفروع المعرفیة المتفرعة عن حقل علم الاجتماع العام، والذي أبدى اهتماما خاص بد رسة الظاهرة الحضریة في تجلیاتها الزمكانیة المختلفة، ورغم البدایة المتعثرة التي صاحبت مسار نشأته وتطوره بفعل عوامل ظرفیة متعلقة بنشأته المتأخرة، وكذا تعذر ضبط تصور محدد له إلى جانب تغلیب جوانب كانت ذات أولویة في حینها... إلخ، إلا أنه أستطاع تدریجیا أن یشق طریقه وسط العدید من التخصصات والمعارف الأخرى، والتي تتقاطع معه وتشاركه موضوع الاهتمام والبحث على تباین مسمیاتها كالاقتصاد الحضري، التشریع الحضري... إلخ، الأمر الذي أهله لتبوأ مكانة علمیة مرموقة بینها وذلك على المستویین الأكادیمي والمهني. وهو الأمر الذي یدفعنا إلى محاولة مقاربته والتعرف علیه أكثر، وذلك من خلال استهداف الإجابة على عدد من التساؤلات، لعل أبرزها: ما معنى علم الاجتماع الحضري؟ وفیما تتجلى أهمیته؟ وما هي المجالات التي یستهدفها بالبحث والد راسة؟، وما العوامل التي دعت إلى قیامه؟

**لمحة عامة عن علم الاجتماع**

**ما هو علم الاجتماع؟**

علم الاجتماع باللاتينية هو sociology ، وتتكون هذه الكلمة من شقين socio أي المجتمع وlogy أي علم ، واتفق الكثير من علماء الاجتماع وعلى رأسهم اوجست كونت إلى تعريف علم الاجتماع بأنه " العلم الذي يهتم بدراسة المجتمع " . وأوضح كونت مهمة علم الإجتماع بأنه العلم الذي يهتم بدراسة الظواهر الاجتماعية دراسة وضعية ، ويحاول الكشف عن العلاقة بين هذه الظواهر ، إلا أنه لم يوضح ما المقصود بالظاهرة الاجتماعية . وقام دور كايم فيما بعد بتوضيح خصائص الظاهرة الاجتماعية بأنها : ظواهر إنسانية تنشأ بنشأة المجتمع ، وأنها عبارة عن قوالب للتفكير والعمل الإنساني، وبأن لها وجودا منفصلا عن الأفراد الممارسين لها ، وأنها ليست من صنع الفرد ، بل من صنع المجتمع ككل (Durkheim, 1983 )

عرف **دور كايم** علم الأجتماع بأنه العلم الذي يهتم بدراسة البناء الأجتماعي وما به من مؤسسات من حيث مقوماتها ووظائفها ( Durkheim,1983 ) ويقصد بالبناء الاجتماعي هنا الجماعات الاجتماعية المستمرة والمكونة للبيئة الاجتماعية المحيطة بنا كالأسرة والمدرسة والجيرة ، والتي وجدت قبل الأنسان وستسمر بعد رحيله ( Curry, 1990 .p.4 ) .

ثم شرح **براون** Browne فيما بعد موضوع علم الاجتماع بأنه الدراسة المنظمة للجماعات الإنسانية والحياة الإجتماعية والمجتمعات الحديثة فهو يهتم بدراسة المؤسسات الاجتماعية التي يتكون منها المجتمع مثل مؤسسة الأسرة المسئولة عن تنظيم عملية الزواج ، من حيث سن الزواج ،والجماعات التي يمكن للفرد أن يتزوج منها، ومقدار المهر ، وأسلوب التربية الذي يجب على الوالدين اتباعه . والمؤسسة التعليمية هي المؤسسة المسؤولة عن تجديد الأساليب التي يمكن من خلالها نقل المعلومات والمعارف للأبناء ، وهي المسؤولة عن تنمية المهارات والقدرات التي يحتاجها الأفراد لسد احتياجات المجتمع . والمؤسسة الاقتصادية تتولى مسؤولية تنظيم عملية الإنتاج والاستهلاك والتوزيع بين أفراد المجتمع . أما المؤسسة الدينية فتتولى مسؤولية تنظيم العلاقة بين الأفراد والقوى الغيبية ، وتسعى إلى غرس القيم الأخلاقية في المجتمع وتنظيم العلاقة بين الأفراد (Browne, 1995.p.2 ) أما المؤسسة السياسية فمهمتها تنظيم العلاقة بين مراكز السلطة والنفوذ وبين أفراد المجتمع ، وتسعى هذه المؤسسة إلى حفظ الأمن والاستقرار في المجتمع . ومن هنا كانت مهمة عالم الاجتماع دراسة وظيفة كل مؤسسة من هذه المؤسسات على حدة ، والكشف عن طبيعة العلاقة بين هذه المؤسسات ، هل هي علاقة تعاون أم صراع ؟ وكيف تؤثر كل مؤسسة على المؤسسات الأخرى ؟

عرف بعض العلماء علم الاجتماع بأنه العلم الذي يهتم بدراسة " التفاعل الاجتماعي " و" العلاقات الاجتماعية " . ويقصد بالتفاعل الاجتماعي السلوك الصادر عن الفرد نتيج احتكاكه وتعامله مع الأخرين ، فسلوك الفرد في حياتنا اليومية ما هو إلا رد فعل لتصرف الناس من حولنا وللتوقعات المسبقة بيننا كأفراد ( Goodman. 1996.p.3) . ونحن كأفراد نستنتج هذه التوقعات من البيئة الاجتماعية المحيطة ، فعلى سبيل المثال يتعلم الطفل أداب التحية ، واحترام الاخرين ، واحترام الوقت ، واحترام العمل من والديه ، فإذا لم يكتسب هذه القيم منذ الصغر فلن يعرف كيف يتعامل مع الاخرين في الكبر. والإنسان ليس مجرد كائن حي ، بل هو جزء من مجتمع كبير ينتمي إليه ، ويكتسب منه معني إنسانيته ، فهو يتعلم كيف يتكلم ويتصرف كإنسان مع المجتمع المحيط به . وكلنا يذكر قصة طرزان الذي وجد العلماء عام 1974 وهو في السادسه من عمره في إحدى الغابات في إفريقية الوسطى ، والذي تولت جماعة من القردة في تربيته بينهم فكان يأكل الفواكه والخضروات مثلهم ويمشي كما تمشي الحيوانات على أطرافه الأربعة ، ويصدر أصواتا مثلهم عند الإحساس بالخوف او الخطر ، وحتى بعد أن وجده العلماء وحاولوا تعديل سلوكه وتصرفاته بالتدريب المتواصل لمدة عامين ، كان سلوكه أقرب إلى الحيوان منه إلى الإنسان .( Eitzen. 1995.p. 148 ) .

ويؤكد بعض العلماء أن علم الاجتماع هو العلم الذي يهتم بدراسة انماط السلوك الناتج عن عوامل اجتماعية لا من عوامل نفسية أو بيولوجية . فالإنسان يختلف عن بقية الكائنات الحية الأخرى بأنه حيوان ناطق فلديه لغة ، وهو حيوان مفكر فلديه تراث ثقافي يساعده في التعامل مع الاخرين . والأنسان يكتسب الثقافة وما بها من قيم ومعايير وعادات وتقاليد من مجتمعه ، ومن خلال عملية التنشئة الاجتماعية ، بحيث تصبح هذه القيم والمعايير بعد فترة من الزمن جزءا لا يتجزأ من شخصيته . وهذا يعني أن عالم الاجتماع يهتم بدراسة الأنماط الاجتماعية التي تتكون من تفاعل الأفراد مع بعضهم البعض ، فهو يركز على دراسة شبكة العلاقات التي تحول تجمع مجموعة من الافراد من مجرد تجمع طارئ إلى جماعة أجتماعية بما تشمله هذه الكلمة من علاقات وأهداف وقواعد . ولكي يدرس عالم الاجتماع لابد وان يدرس مجموعة القيم المشتركة التي تجمع أفراد مجتمع واحد وتجعلهم يسلوكا سلوكا مشتركا في حياتهم اليومية ( Eitzen . 1995.p.24). حقا إن الإنسان قد يبدو حراً في قراراته ، فهو الذي يختار مدرسته أو عمله أو شريكة حياته ، لكنه في الحقيقة ليس حراً حرية تامة في اختياراته ، فهو لم يختر الأسرة التي ولد بها ولا اسمه ، ولم يختر الطبقة التي ينتمي إليها ولم يختر الثقافة التي يمارسها، والمنطقة الجغرافية التي نشأ فيها ، والتعليم الذي تلقاه في فتر الصغر . فهناك امور كثيرة وجدت قبل أن يوجد هو كفرد بل كثيرا ما يجد الإنسان نفسه مجبراً على القيام باعمال كثيرة قد لا يرغب فيها إرضاء للمجتمع الذي من حوله . ألم تجد نفسك يوما ما مجبراً على القيام بتصرف معين رغم عدم قناعتك به إرضاء للناس من حولك ؟ او قد تحرم من اداء عمل ترغب فيه لعدم تقبل الأخرين لهذا العمل . فتصرفاتنا كأفراد كثيراً ما تتأثر بالمجتمع المحيط بنا . فنحن كجزء من الجماعة التي ننتمي إليها نحاول دائما ان نتكيف مع قيم هذه الجماعة ومعاييرها لأدراكنا بان خروجنا عن هذه الجماعة يعرضنا لانتقاداتها ونبذها أو عقابها لنا . فهناك نوع من الضبط الاجتماعي الذي يمارسه المجتمع على الأفراد لحفظ التضامن والاستقرار الاجتماعي . كذلك قد تتأثر قراراتنا الشخصية بقرارات عامة تتخذ من قبل الحكومة او منظمات أخرى لها سلطاتها في المجتمع . على سبيل المثال إذا ما رفعت الحكومة أسعار البنزين ، فسيتأثر استهلاك الفرد لسيارته ، وقد يقلل من خروجه وتحركاته . كذلك فأن رفع شركات الطيران لأسعار التذاكر قد تؤثر على سفر الأفراد للخارج ، وقد يظطروا ألى استخدام السيارة او القطار كوسيلة للتنقل بدل الطيارة .فكثيراًما يتأثر السلوك الاجتماعي للفرد بالظروف المحيطة به .

وقد أوضح بعض العلماء أن علم الاجتماع هو العلم الذي يهتم بدراسة الظواهر الاجتماعية السائدة في المجتمع ، والظاهرة هي النمط المتكرر من السلوك . فعالم الاجتماع لا يهتم بدراسة السلوك الفردي الذي يحدث بمحض الصدفة ، ولكنه يهتم بالسلوك المتكرر من الافراد . فعلى سبيل المثال يهتم عالم الاجتماع بدراسة ظاهرة غلاء المهور في دول الخليج او ظاهرة العنوسة بين الجامعيات ، أو ظاهرة الادمان بين الشباب ، او ظاهرة العنف الاسري أو الطلاق ..الخ .

وتجدر الإشارة هنا إلى ان علماء الأجتماع لم يهتموا بدراسة المجتمعات في حالة استقرارها فقط ، بل وجهوا اهتمامهم لدراسة التغير الاجتماعي ودوافعه فالأنسان يتميز عن بقية الكائنات الحية الأخرى بالعقل ، وأفعال الانسان لا تتم بشكل تلقائي سلبي، ولكن تتم بناء على قناعات ةاختيارات مطروحه امامه وهذا ما يجعل الانسان لا يقف موقف المتفرج من الثقافة ، فهو لا يتلقاها بشكل سلبي ، بل يأخذ منها ما يناسبه ، ويضيف اليها من خبراته وتجاربه مما يؤدي إلى ظهور الاختراعات ، وهذا ما يجعل الثقافة ليست شيئاً ثابتاً ، بل هي في تغير وتتطور مستمر .

**ما هو المجتمع Society :**

اتفق علماء الاجتماع على ان علم الاجتماع هو علم دراسة المجتمع لكن ما المجتمع ؟ وهل للمجتمع وجود حقيقي كا يزعم البعض ؟ أم أنه من نسيج تخيلنا ؟ وإذا كان له وجود فأين ؟ وما أهميته ؟ . يؤكد إميل دور كايم ( 1917- 1858 ) الفرنسي الجنسية ، وهو من العلماء البارزين المؤسسين لعلم الاجتماع أن المجتمع حقيقة ثابته ، وان له وجود مستقل عن الأفراد المكونين له . والمجتمع هو جماعة من الناس يعيشون على قطعة محددة من الأرض لفترة من الزمن ، بحيث يكونون معاً يعيشون على قطعة محددة من الأرض لفترة من الزمن ، بحيث يكونون معا ثقافة مشتركة تميزهم عن غيرهم من المجتمعات ، وليس هناك وجود لمجتمع بلا أفراد . فالمجتمع يتكون نتيجة لتعامل الأفراد مع بعضهم البعض بحيث يصبح للأفراد سلوك جماعي يختلف عن سلوكهم فيما لو كانوا افراداً منفصلين أو منعزلين عن بعضهم البعض . وهذه العلاقة التي تكونت نتيجة لاحتكاك الأفراد مع بعضهم البعض هي التي تكون المجتمع .وقد ميز إميل دور كايم بين نوعين من المجتمعات :

**1- المجتمعات الصغيرة :**

المجتمعات الصغيرة التقليدية وتتميز بالبساطة مثل مجتمعات الجمع والالتقاط ، والرعى والزراعة ، وأهم صفاتها هي : أنها مجتمعات بسيطة غير معقدة ، ومترابطه ، والعامل الرئيسي الذي يجمع بين أفرادها هو وجود قيم أخلاقية ، ومعتقدات واحدة ، وتشابه أفرادها في المهنة ، فالتجانس والتشابه هو سبب أساسي من أسباب تماسكها . وأطلق على نوع الترابط الذي يميز هذه المجتمعات " التضامن الألى " .

**2- المجتمعات الكبيرة** :

تتميز هذه المجتمعات بالتعقيد ، وعدم التجانس . ويحدث التكامل في هذه المجتمعات نتيجة لاختلاف وظائف أفرادها ، فالتخصص وتقسيم العمل هو اهم ما يميز المجتمعات الكبيرة . فكل جزء من أجزاء المجتمع يعتمد على الأجزاء الاخرى ، وتماسكها هذا ناتج عن اختلافهم وتكاملهم لا عن تشابههم . وأطلق على نوع الترابط الذي يجمع هذه المجتمعات " التضامن العضوي ".

ومن الموضوعات التي اهتم بها علماء الاجتماع في دراستهم للمجتمع هي الكشف عن نوع العلاقة بين افراد المجتمع ، هل هي علاقة تماسك ام صراع ؟ كما حاولوا تفسير العاومل التي تؤدي إلى تماسك المجتمعات وترابطها سواء العوامل المخططه أو غير المخططه ، المتعمده أو التلقائية ومعرفة العوامل الوظيفية أو غير الوظيفية السائدة في المجتمع ، على افتراض انه ليس من الضروري ان تكون جميع التغيرات التي تحدث في المجتمع مؤدية إلى التجانس ، بل قد يكون هناك عوامل تؤدي إلى تخلخل المجتمع، ولو لفترة من الزمن ، ثم يعيد المجتمع بناء نفسه وتوازنه مرة اخرى ، وانقسموا في ذلك إلى مجموعتين :

**المجموعة الاولى** : ترى أن المجتمع في حالة انسجام وترابط لتحقيق المصلحة المشتركة للجميع في الإنتاج والتوزيع والحماية .

**المجموعة الثانية** : ترى ان المجتمع في حالة تنافس وصراع ، ويستندون في رأيهم هذا على ان الأشياء التي يرغب بها الناس كالثروة ، والقوة ، ومصادر الطاقة ، والمكانة ، محدودة في المجتمع لذا فإن الصراع والتنافس هو اساس العلاقة بين الأفراد

**ما هي أهمية المجتمع ؟**

قد يرى البعض أن السؤال عن اهمية المجتمع سؤال بديهي لا يحتاج إلى إجابة فنحن جزء من المجتمع . ولما كان من اهداف علم الاجتماع التحقق من صحة البديهيات وتوضيحها ، لذا فأن من الضروري توضيح اهمية المجتمع بالنسبة للفرد . فالمجتمع موجود قبل الأنسان ، وسيستمر بعد رحيله ، والمجتمع موجود داخل كل فرد فينا ، ونحن جزء من المجتمع ، لذا فإنه يمكننا تحديد أهمية المجتمع في عدة نقاط هامة :

**أولا: المجتمع مهم لأن الأنسان اجتماعي بطبيعته :**

يكتسب الانسان طبيعته الإنسانية من المجتمع الذي يعيش فيه . كيف نتصرف كأفراد؟ ماذا نلبس وماذا نأكل ؟ وكيف نتعامل مع الاخرين ؟ كل هذه التساؤلات تعتمد على المجتمع الصغير المحيط بنا. فعندما يولد الإنسان يكون مجرد مخلوق ضعيف عاجز عن إعالة نفسه ،فإذا لم يقدم له الطعام والشراب والحب والأمان ، لمات هذا الطفل الرضيع . في حين ان الكثير من صغار الحيوانات تستطيع الوقوف على قدميها والاعتماد على نفسها في الحصول على الغذاء بعد لحظات من ولادتها . أما المولود الإنساني فأنه يعتمد على الاخرين لعدة سنوات حي يستطيع الاعتماد على نفسه في كسب قوته. وهذه الطبيعة الفيزيقية للإنسان هي التي تجعله يحتاج إلى الافراد من حوله ، وإلى جماعة ينتمي إليها حتى يكتب له البقاء والاستمرار . ومع مرور الوقت يزداد ارتباط الفرد بالجماعات المختلفة لاشباع احتياجاته المتزايدة والمتنوعة. فهو يحتاج إلى الاسرة لتمده بالحب والحنان والغذاءوالكساء والدفء، وهو يحتاج إلى المدرسة لتمده بأنواع المعارف المختلفة ، وهو يحتاج إلى الأصدقاء لقضاء وقت الفراغ ، ويحتاج إلى المصانع لصناعة الملابس والاحذية وادوات المنازل والسيارات وغيرها ، بحيث يجد الفرد نفسه في سلسلة من العلاقات المتبادل فهو يتعلم ويعمل ويقدم حدمات للأخرين ، وهم في المقابل يقدمون له خدمات أخرى . واحتياج الفرد للأخرين ليس احتياجا ماديا فقط ، بل هو احتياج عاطفي ووجداني كذلك . فالفرد فالفرد يحتاج لأن يحب ، ولأن يكون محبوبا من الاخرين ويحتاج للرعاية والاهتمام ، كما يحتاج لتقديم الاهتمام للاخرين ، حيث أنه من الصعب على الإنسان شعوره بعدم أهميته ، وأنه ليس هناك أحداً في حاجة إليه . بجزء من الطبيعة البشرية أنيشعر الفرد بأنه إنسان منتج وانه مرغوب فيه ، وانه ليس وحيداً في هذا العالم ، بل هناك أفراد أخرين يشاطرونه أفراحه وأحزانه ، ويشعرونه بحاجتهم له .

**ثانيا: المجتمع ضروري لبقاء الإنسان** :

استطاع الإنسان الاستمرار وتجاوز الصعاب البيئية المحيطة به لوجوده في مجتمع ولتعاونه مع الأخرين . فالأنسان يحب ذاته ويقدس حريته ولكنه أدرك بفطرته أنه لكي يكتب له البقاء والاستمرار لابد له من العيش بسلام مع الأخرين . فلكي يجابه الأنسان الاخطار المحيطة به والصعاب التي تواجهه أدرك انه لابد وان يعيش مع الاخرين ، فتعلم بعض المهارات التي تساعده على استغلال البيئة الطبيعية المحيطة به ، بدءا من إشعال النار إلى اختراع الكتابة لتدوين خبراته ونقل معلوماته ، ثم اكتشف مع مرور الوقت أنه لكي يجيد عمله لابد له من التخصص في اعمال معينة اومجالات خاصة تميزه عن الاخرين . فكان التخصص وتقسيم العمل هو أساس العلاقة التي تربط بين الافراد ، ومن هنا كان المجتمع الإنساني نتاج طبيعي لعملية التكييف مع البيئة .

**ثالثاً: المجتمع يحدد هوية الفرد الاجتماعية** :

الهوية نتاج اجتماعي يحدد مكانة الفرد والدور المتوقع منه أدائه في المجتمع . ومكانة الفرد هذه تحدد نظرته لنفسه سواء كانت هذه النظرة إيجابية أم سلبية، وتختلف مكانة الأفراد في البناء الإجتماعي فالبعض يحتل قمة هذا البناء، والبعض يحتل مكانة متوسطه، في حين يحتل اخرون مكانة دنيا في البناء الاجتماعي . ومكانتنا في هذا البناء هي التي تحدد هويتنا الاجتماعية وتحدد السلوك المتوقع منا أداؤه في هذا البناء. وهذه الأدوار الأجتماعية المتوقع منا أداؤها تختلف من مجتمع إلى أخر باختلاف البناء الاجتماعي واختلاف الثقافة السائدة . فعلى سبيل المثال لا الحصر ، نجد أن الأب في المجتمعات العربية والغربية على حد سواء تقع عليه مسؤولية إعالة الزوجة والأبناء، في حين أننا نلاحظ في بعض المجتمعات مثل التروبرياند لا يكون للأب البيولوجي سلطة فعلية على الأبناء ولا يساهم في تربيتهم، بل يتعين على الخال ان يقوم بجميع المسؤوليات الاجتماعية كالتربية والنصح واللإرشاد لأبن أخته ، بينما يقوم الأب بتربية ورعاية أبناء شقيقته.